فى تلك البقاع المهجورة الشاسعة بدت له القلعة مثل حارس وحيد لحضارة الرجل الأبيض ، وفيما عدا القرى القليلة الموالية للحكومة لم يكن هناك ما يمكن أن يخلق البهجة فى قلب الكولونيل سوى ما يترامى اليه من غنـــاء النســـاء أو صوت الطبـــول ·· أو دمدمات نيران الرقص المجنونة ، لكن القرية على بعد ميل ، وهم هناك يبدأون مهرجانات الليل متأخرين ، والمسجونون هنا تخيم عليهم الكآبة ·

تظاهر كوزمو بأنه لم يسمع أمر القائد ·

عبرت السماء سحب ثقيلة تنذر بالمطر ، شد الكولونيل نفسه من كل هذا الطقس الرديء ·· الذى يتراوح بين الحرارة الاستوائية والبرد القطبى ، عبر خدمته رأى التلال المترامية فى ولاية البرتقال ، ورأى نفسه أصم أمام السماوات المحملة بالسحب الرمادية ، وعندما كان يتدرب فى « ساند هيرست » ببريطانيا رأى الرذاذ الذى لا ينقطع ، لكنه هنا لم يستطع أن يتحمل العصيان ، صرخ :

ـ كوزمو !

انتزع الجاويش نفسه من الآلام المبرحة فى عظامه لكى يقوم بواجبه ، تلك الآلام التى يتخفف منها بفضل التراتيل وايقاع الأقدام ، أسرع الى الشرفة حيث أدى التحية العسكرية ، رفع الكولونيل وجهه ذا الخدين الغائرين وصرخ :

ـ ألم تسمع ندائى ؟

أجاب كوزمو كاذبا :

ـ لا يا سيدى ·

ـ الرقص !

ـ لقد جاء الفلاحون بالأمس ورقصوا فى عيد القديسة فاتيما ولن يجيئوا مرة أخرى

ـ لقد أعطيتهم نقودا بالأمس ·

ظل كوزمو خافضا بصره أمام سيده ، زادت ظلال السحب وجهه قتامة ، وفى السماء انفجر غضب آخر شق بوابات السماء ، كان حراب حشود المتمردين قد اقتحمت بيت الله ·